مجلة الآداب واللغات، المجلد 24 ، العدد 01 (ماي 2024)،ص ص: 70 – 83

مجلة الآداب واللغات
جامعة أبي بكر بلقايد،تلمسان / الجزائر
ISSN : 2676-1963/ EISSN: 2676-167X
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/416

الكتابات الصوفية وتأثير المخيال عليها في المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط

Sufi writings and the influence of the imagination on them in the Middle Morocco during the Middle Ages

أحلام لغريب* ، جامعة محمد بوضياف- المسيلة-،الجزائر.ahlam.leghrib@univ-msila.dz

عبد الغني حروز ، جامعة محمد بوضياف- المسيلة-،الجزائر.abdelghani.hrouz@ univ-msila.dz

تاريخ المقال

الإرسال: 2022-11-26 القبول: 2023-03-21 النشر :2024-05-06

ملخص البحث

تعالج هذه الورقة البحثية موضوعا مهما استقطب العديد من الباحثين و يتعلق الأمر ب الكتابات الصوفية وتأثير المخيال عليها في المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط وما قدمته هذه المصنفات من ملامح عامة لحياة الصوفية في المغرب الأوسط ، ودور المخيال في رسم منهج الكتابة فيها ، وتصور الكرامات والفتوح وطريقة عيش المتصوفة وتنظيم الموردين ، وحكاياتهم اللاعقلانية من خلال أسلوب تاريخي، كما نوضح تعدد أنواع هذه المصنفات من مناقب ، ونصوص أدبية وغيرها ، واصطباغ أغلبها بالمخيال،مبرزين أهمية الموضوع المعبر عن ثروة فولكلورية شعبية لنمط من الكتابات المغرب أوسطية قدمت لنا جوانب وتجارب اجتماعية غفلت نصوص التاريخ عن سردها ، إذ من خلال هذه الدراسة نكون حققنا الهدف وهو الكشف عن مدى التناسبية بين المخيال الشعبي أو الفردي والمخلفات النصية الصوفية التي حفظت لنا إلى غاية اليوم ، ومعرفة مدى تأثير المخيال عليها ، من خلال نظرة تحليلية لمختلف المواد النصية الواقعة بين أيدينا ، في انتظار تحقيق ما لم يحقق منها مما هو مخطوط ، أو ظهور ما هو في حكم المغمور.

الكلمات المفتاحية

التصوف
المخيال
المناقب
المتصوفة
الكتابات الصوفية

Abstract

This research paper deals with an important topic that attracted many researchers, and it is related to Sufi writings and the impact of the imagination on them in the central Maghreb during the Middle Ages, and the general features provided by these works for the life of Sufism in the central Maghreb, and the role of the imagination in drawing the writing method in it, and the perception of dignities and conquests, the way of life of the Sufis and the organization of suppliers, and their irrational tales through a historical style, as we explain the multiplicity of types of these works of virtues, literary texts and others, and the pigmentation of most of them Through this study, we have achieved the goal, which is to reveal the extent of proportionality between the popular or individual imagination and the Sufi textual remnants that have preserved us until today, and to know the extent of the impact of the imagination on them, through an analytical look at the various textual materials in our hands, waiting to achieve what has not been achieved. Some of them are from what is manuscript, or the appearance of what is in the rule of the submerged.

Keywords

Mysticism
Imagination
Virtues
Mystics
Sufi Writings

* المؤلف المرسل

مقدمة:

انكب الكثير من الباحثين والأكاديميين في الآونة الأخيرة للاهتمام بالدراسات الصوفية ، وفهم تجليتها وتأثيراتها على الجانب الاجتماعي في المنطقة ، وكذلك على الجانب الفني والإبداعي لنصوصها التي لا تزال تحير مفسريها لأنها في كل تعامل معها تعطى دلالات واحاءات روحية وفنية مختلفة ، السيادة في بلورتها للمخيال وآلياته.

هذا المخيال الذي أرخى بظلاله على الكتابات الصوفية في بلاد المغرب وأثر فيها بطريقة مباشرة سواء كان فردي أو جماعي ، ليخلق بذلك تجربة فكرية اجتماعية مميزة استطاعت أن تج ذب باحثيها ، وتجبرهم على دراستها عدة مرات بعمق وتدقيق لفهم مجرياتها.

ومن خلال ه ذا الكلام تتضح لنا أهمية موضوعنا الذي تناول تأثير المخيال على الكتابات الصوفية في المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط ، والذي جاوبنا من خلاله على الإشكالية التالية : "إذا كانت الكتابات الصوفية في المغرب الأوسط نسجت بين المقدس والأسطورة والكرامة والواقع كيف نفسر المخيال الطاغي عليها ، وما هي أبرز ملامحه في نصوصها؟ ".

وللإجابة على ه ذه الإشكالية اعتمدنا على المنهج التاريخي الوصفي الذي اقتضاه تخصصنا والتعامل مع المادة المتحصل عليها من خلال الوصف والتقديم والطرح ، وتفسير التأثير والتأثر ، وليسهل علينا تقديم هذه المادة قمنا بتقسيم مقالتنا إلى العناصر التالية:

1.الكتابات الصوفية في المغرب الأوسط- البدايات والتطور-

2.أنواع الكتابات الصوفية

3. تأثير المخيال على الكتابات الصوفية

1. الكتابات الصوفية في المغرب الأوسط - البدايات والتطور-

يعد التصوف من المظاهر الاجتماعية والعلوم التي انتشرت في المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط ، واستطاع أن يخلف لنا موروثا شعبيا مخطوطا لا يحصى عبر عن الهوية الاجتماعية والثقافية ، فهو لسان حال فئة العامة من الساكنة وكذلك بعض الخاصة من العلماء ، إذ لا يمكن لأي باحث سواء في الميدان التاريخي أو الاجتماعي أن يدرس التركيبة الثقافية والاجتماعية للمجتمع المغربي الوسيط دون الرجوع لهذه المصنفات التي أخذت أهميتها من تعبيرها عن واقع معاش دون رقابة سلطوية .

وبالحديث عن التصوف كعلم يدرس له منهاجه وقوانينه استطاع أن يستقطب الطلبة والمردين ، الذين لم يتخلفوا عن ركب التأليف والتصنيف فيه ، لتظهر بذلك خلال القرنين 8و 9ه مدونات صوفية مغربأوسطية ذات منهجية محلية وصبغة مغاربية تختلف عن المشرقية ، نابعة من تفرد وتميز العالم الصوفي المغربي الأوسطي وعكست مدى تأثيرها على المنطقة المغاربية الأخرى (بوعقادة، 2011، صفحة 116).

إذ تعددت أنواع تصانيفهم بين الخوض في التراجم الصوفية ، وتناول الطريق الصوفي والسبيل لتخطى مقاماته ،وكذلك الغوص في القضايا التي أثيرت حول المتصوفة والتصوف بالدراسة والتحليل ، واتجه آخرون إلى الاختصار والشرح (رزيوي، 2015- 2016، صفحة 233)على مصنفات من سبقهم أو معاصريهم وشيوخهم.

وقبل الشروع في طرح هـ ذه المصنفات والإشارة لأصحابها والتطور الحاصل فيها ، كان لبد لنا معرفة الإرهاصات الأولى التي أدت لظهور مثل هـ ذه المدونات ، والتي يعز أن نرجعها لغاية القرن 3 و 4 هـ/ 9-10م مع بروز تيار الزهد وعلمائه ال ذي دع إلى الابتعاد عن ملذات الدنيا والانعزال والتعبد ، ومن الشخصيات التي اشتهرت بالصلاح والخير نذكر: عبد الرحمن بن زياد الله الطبني (401 هـ - 1011م) ، وعلى بن محمد التدميري (347 هـ – 958م)ببونة ،و أحمد بن واضح وغيرهم (بلعربي، 2014، صفحة 67).

لتتطور بعدها هذه الحركة الزهدية وتتحول إلى تصوف ومن بين هؤلاء الصوفية المتزهدين ال ذين سكتت المصادر التاريخية عنهم كصوفي وهران " سيدي هيدور " (بن عربة، 2011، صفحة 56)، لتكون به ذا بداية لظهور تيار استطاع أن يخلف لنا موروثا علميا مخطوطا شعبيا هاما عوض بعض النقائص والفجوات التي لم تذكرها كتب التاريخ خاصة في الجانب الاجتماعي والثقافي وحتى الاقتصادي.

وقد ظهرت هـ ذه الكتابات الصوفية بالمغرب الأوسط خلال القرن 6 هـ /10م مع كبار أقطابها كابن النحوي وأبو مدين ال ذين أدخلوا المؤلفات الصوفية للمنطقة وعكفوا على تدريسها وشرحها ، ونظم المختصرات عليها كالرسالة القشيرية ، وكتاب الإحياء للغزالي ، وابن العريف في محاسن المجالس ، وقوت القلوب لأبي طالب مكي البغدادي (بوخضرة، 2011-2012، صفحة 124) (عشي، 2011-2012، صفحة 235) (بوتشيش، 2015 – 2016، صفحة 133)،وكلها ساهمة في تكوين الفكر الصوفي في المنطقة ، فعمد أقطابه على خلق منهج وأسلوب خاص بهم في الكتابة من خلال مصنفات صوفية مغربأسطية كأبو مدين وعبد الرحمن بن يوسف البجائي الذي ألف كتاب قطب العارفين ومقامات الأبرار والأصفياء الصدقين (جلول، 2015-2016، صفحة 160) (بلعربي، 2014، صفحة 67)، لتطلق بهم شرارة التأليف في ميدان التصوف .

ومن خلال دراستنا للموضوع نجد أن الكتابات الصوفية في بلاد المغرب الأوسط قد مرت بمرحلتين زمنيتين تميزت كل مرحلة بنخبتها ومنهجها في تناول المواضيع ، وكانتا كالآتي :

- المرحلة الأولى: مرحلة البدايات وترسيخ الدعائم ، اقتصر فيها التأليف والتصوف على نخبة من العلماء الكبار ، وضعوا من خلالها أسس ومنهج الكتابة الصوفية في المغرب الأوسط، وامتدت زمنيا من القرن 6هـ لغاية 8هـ.

- المرحلة الثانية: مرحلة الكتابات الشعبية والتنوع في التصانيف ، تميزت بالمنهج البسيط السلس ، وذلك لأنها موجهة لعامة الشعب والطلبة من خلالها تم حفظ الأوراد وأسس الطرق الصوفية داخل الزوايا والفرق ، ومناقب الأولياء والأسر ، امتدت زمنيا من القرن 9هـ ، لا يمكن تحديد تاريخ لنهايتها لأنها استمرت لغاية الفترة الحديثة بنفس الأسلوب والمنهج .

وإن المتتبع له ذه المراحل في هـ ذه الفترة يلاحظ مدى الزخم والكثرة في التصانيف والعلماء والأولياء الذين اتخذوا من هـ ذا التيار أسلوب للكتابة والتعبير والإشادة بشيوخهم وأوليائهم ، وحفظ أوراد وقواعد الطريقة ، ولكثرتهم ارتأينا أن نشير إلى الأهم والأشهر في تلك الفترة الزمنية ، وليسهل علينا حصرهم نظمنا الجدول التالي :

المتصوف	كنيته	مصنفاته الصوفية
أبو مدين (ت 594هـ/ 1197م)	أبو مدين شعيب بن الحسين الأندلسي ، التلمساني الدار (أنظر ترجمته في : التنبكتي، 2000، الصفحات 193-196) (ابن قنفذ، 1983، الصفحات 297-298)	- أنس الوحيد ونزهة المريد في التوحيد (أنظر ترجمته في : عشي، 2011-2012، صفحة 235).
الوهراني (ت 575هـ/ 1179م)	أبو عبد الله محمد بن محرزين محمد الوهراني الملقب بركن الدين ، وقيل جمال الدين	المنام الكبير (بن عربة، 2011، صفحة 56).
البجائي (حيا 577هـ)	عبد الرحمن بن يوسف بن عبد الرحمن البجائي ، أبو القاسم جمال الدين (أنظر ترجمته في: نويهض، 1980، صفحة 36)	- كتاب قطب العافين ومقامات الأبرار والأصفياء الصدقين (جلول، 2015-2016، صفحة 160)
الاشبيلي (ت 582هـ /1186م)	أبو الحق بن الرحمن الاشبيلي ، استقر ببجاية سنة 550هـ /1155م ، وهو محدث زاهد	- كتاب التهجد (ليبدري، 2015- 2016، صفحة 69)..
المسيلي (ت 581هـ/ 1185م)	أبو الحسن بن علي المسيلي ، مسيلي المسقط ، وبجائي المنشأ ، عالم بالباطن والظاهر (أنظر ترجمته في :	- كتاب التفكير فيما تشتمل عليه السور والآيات من المبادئ والغايات (بلعربي، 2014، صفحة 70) (ليبدري، 2015- 2016، الصفحات
	الحفناوي، 1907، الصفحات 59-60) (طيايبة، 2019-2020، صفحة 111).	76 - 77) (أنظر ترجمته في: نويهض، 1980، صفحة 299).
التجيبي (ت 610هـ/ 1214م)	أبو عبد الله بن عبد الرحمن التجيبي نزيل تلمسان	- كتاب الأربعين في الفقر وفضله. - كتاب الحب لله (أنظر ترجمته في : عشي، 2011-2012، صفحة 237)
ابن المرأة (ت 611هـ / 1215م)	إبراهيم بن يوسف بن دهاق نزيل تلمسان	- كتاب شرح أسماء الله الحسني. - شرح كتاب محاسن المجالس لأبي العباس بن العريف (ت536هـ/1141م). - شرح إرشاد أبي المعالي الجويني إمام الحرمين (أنظر ترجمته في : عشي، 2011-2012، صفحة 237).
الزواوي (ت611هـ/ 1214م)	أبو زكريا يحي بن علي المتصوف الزاهد (أنظر ترجمته في : عشي، 2011-2012، الصفحات 237 - 238).	لم نقف له على كتاب.
ابن الحجام (ت 614هـ / 1217م)	أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد اللخمي التلمساني المولد	- حجة الحافظين ومحبة الواعظين ، اختصره أبو زكريا يحي بن محمد بن طفيل وسماه " مجالس الأذكار وإبكار عرائس الأفكار" (ليبدري، 2015-

		2016، الصفحات 71 - 72).
الحرالي (ت 638هـ/ 1239)	أبي على بن أحمد الحرالي البجائي المستقر	- شمس مطالع القلوب وبدر طوالع العيوب . - كتاب صلاح العمل لانتظار الأجل . - أشعار صوفية (بونابي، 2004، الصفحات 24 - 25).
أبو العيش الخزرجي التلمساني (ت 654هـ/ 1256م)	أحمد بن أبي زيد عبد الرحيم بن محمد ابن أبي العيش الاشبيلي المولد ، التلمساني الدار	- كتاب شرح أسماء الله الحسني - قصائد منظومة في التصوف (أنظر ترجمته في : عشي، 2011-2012، صفحة 240).
الأنصاري (ت675هـ/ 1276م)	عبد الحق بن ربيع بن أحمد بن عمر الأنصاري أبو محمد ، بجائي الموطن	- قصيدة صوفية حوالي 500بيت فيها (أنظر ترجمته في: نويهض، 1980، صفحة 36).
أبو زكريا السطيفي(ت677هـ/ 1278م)	أبو زكريا يحي بن زكريا بن محجوبة القرشي السطيفي	- تصانيف وتقاييد ونظم حسن في التصوف ومعانيه (رزيوي، 2015-2016، صفحة 233).
المقرى الجد (ت759هـ/ 1357م)	أبو عبد الله محمد بن محمد المقرى (أنظر ترجمته في : التنبكتي، 2000، صفحة 420،427) (المقري، 1968، صفحة 203) (التلمساني، 1908، الصفحات 154-155) (أنظر ترجمته	- الحقائق والرقائق - كتاب المحاضرات - لمحة العارض لتكملة ألفية ابن الفارض - رحلة المتبتل وإقامة المريد (بوعقادة، 2014-2015، صفحة 878) (رزيوي، 2015-2016،
	في : المكناسي، 1973، صفحة 300)	صفحة 234).
ابن أبي حجلة التلمساني (ت776هـ/ 1375م)	أحمد بن يحي بن أبي بكر بن عبد الواحد بن أبي حجلة التلمساني ، شهاب الدين أبو العباس	- جوار الأخيار في دار القرار في مناقب عقبة بن عامر. - دفع النقمة وقيل رفع النقمة في الصلاة على نبي الرحمة في الأحاديث والأدعية . - النعمة الشاملة في العشرة الكاملة. - البيوت المضيئة في الدار البدرية (أنظر ترجمته في: نويهض، 1980، صفحة 365) (رزيوي، 2015-2016، صفحة 234).
ابن مرزوق الخطيب (ت781هـ/ 1379م)	أبو عبد الله محمد ابن مرزوق الخطيب	- مجموعة خطب وأشعار نظمت في مدح النبي . - كتاب في الصبر. - كتاب جني الجنتين في فضل الليلتين في فضائل ليلة القدر وليلة المولد النبوي الشريف . - الأربعين المسندة في الخلافة والخلفاء (بوكرديمي، 2015-2016، الصفحات ص 214-215) (بوعقادة، 2014-2015، صفحة 879). - المناقب المرزوقية (ابن مرزوق، 2008).
ابن	عبد الرحمن بن	- شفاء السائل في تهذيب

خلدون (ت 808هـ/ 1405م)	خلدون (أنظر ترجمته في : المكناسي، 1973، الصفحات410-413).	المسائل (رزيوي، 2015-2016، صفحة 234).
ابن قنفذ القسنطيني (ت810هـ/ 1409م)	أبو العباس أحمد الخطيب	- أنس الفقير وعز الحقير (ابن قنفد القسنطيني، 1965) (بوكرديمي، 2015-2016، الصفحات 240-241)
الهواري(ت843هـ/ 1439م)	محمد بن عمر الهواري أبو عبد الله	- التسهيل وتبصرة السائل. - السهو والتنبيه. - محاضرات الوعظ والإرشاد (أنظر ترجمته في: نويهض، 1980، صفحة 337).
ابن مرزوق الحفيد (842هـ/ 1439م)	أحمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق ، العجيسي التلمساني ، يكنى أبو عبد الله ، يعرف الحفيد (أنظر ترجمته في : مخلوف، 2003، الصفحات 364-365) (أنظر ترجمته في : التنبكتي، 2000، الصفحات 499 - 508).	- نور اليقين في شرح حديث أولياء الله المتقين في شأن البدلاء . - النصح الخالص في الرد على مدعي رتبة الكامل الناقص في سبعة كراريس (رزيوي، 2015-2016، صفحة 235).
ابن زاغو التلمساني (ت 845هـ/	أبو العباس أحمد بن زاغو التلمساني	- شرح حكم ابن عطاء الله. - لطائف المنن. - جلاء الظلام (أنظر
		1441م)
	قاسم بن سعيد العقباني	العقباني(ت 854هـ/ 1450م)
	إبراهيم التازي	التازي (ت866هـ/ 1462م)
	حمد بن أحمد بن أبي الفضل سعيد ابن صعد الأنصاري الأندلسي التلمساني	ابن صعد التلمساني (ت901هـ/ 1496م)
	أبو العباس أحمد بن أحمد	الغبريني (714هـ/ 1314م)
	أبو عمران موسي بن عيسي المازوني والد صاحب النوازل (أنظر ترجمته في : بوداود، 2011، صفحة 189)	المازوني(ت845هـ /1441م)
	عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي الجزائري (أنظر ترجمته في : مخلوف، 2003، صفحة 382).	الثعالبي(ت875هـ/ 1490م)

ترجمته في: نويهض، 1980، صفحة 879) (رزيوي، 2015-2016، صفحة 235).
- أرجوزة تتعلق بالصوفية في اجتماعهم. - النصح الخالص (رزيوي، 2015-2016، صفحة 235).
- المرادية (رزيوي، 2015-2016، الصفحات 235 - 236).
- مفاخر الإسلام (بوعقادة، 2014-2015، صفحة 879).
- عنوان الدراية (الغبريني، 1979) (بونابي، 2004، صفحة 264).
- صلحاء وادي شلف (المازوني، 2019).
- الدر الفائق في الأذكار والدعوات. - قطب العارفين . - نور الأنوار ومصباح الظلام، العقد النفيس - جامع الخيرات المصنف لقرب الممات، رياض

		الأنس،اليواقيت الحسان، الرؤية المباركة، العلوم الفاخرة في أحوال الآخرة، النصائح،رياض الصالحين، العقد النفيس (أنظر ترجمته في : التنبكتي،2000، الصفحات 257 - 260) (التبكتي،2000، الصفحات ص 270-280).
ابن الرصاع(ت 894هـ/ 1489م)	أو عبد الله محمد بن قاسم بن عبد الله الأنصاري التلمساني	- مخطوط تذكير الحبيب في شرح أسماء سيد المرسلين. - مخطوط تحفة الأخيار في الشمائل النبوية (بوكرديمي، 2015- 2016، الصفحات 232-233).
السنوسي(895هـ/ 1490م)	أحمد بن يوسف بن عمر شعيب السنوسي (أنظر ترجمته في : التنبكتي، 2000، الصفحات 263 - 270).	- مختصر رعاية المحاسبي . - شرح أبيات الإمام الالبيري(ت537هـ). - أبيات العارفين . - مختصر بغية السالك للساحلي (ت754هـ). - نصرة الفقير في الرد على أبي الحسن الصغير (رزيوي، 2015- 2016، الصفحات 236-237).
المغيلي (ت909هـ/ 1503م)	أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني (أنظر ترجمته في : مخلوف، 2003، صفحة 396) (أنظر ترجمته في : التنبكتي، 2000، الصفحات 570 - 578).	- تنبيه الغافلين عن مكر الملبسين بدعوى مقامات العارفين (رزيوي، 2015- 2016، صفحة 237).

وبهذا نكون قد عرضنا من خلال هذا الجدول أهم أقطاب التصوف ومصنفاتهم الصوفية في المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط ، ولعل ما يمكن ملاحظته عليها وتأكيدا على ما سبق ذكره حول المنهج ، وما قدمه الدكتور الطاهر بونابي (2004، صفحة 156)أن أساسه الاعتماد على المفاهيم و المصطلحات ذات السياق الزماني ، مع ضبطها وفق ما يتفق مع الأفكار والسلوكيات الصوفية المحلية ، مع الأخذ بعين الاعتبار الأوضاع الاجتماعية والعامة للمنطقة المدروسة ، لتتفرد عن تلك الموجودة في المشرق، رغم أن البعض إن لم أقل ما شذ منها في الفترات الأخيرة اقتصر على منهج المختصرات والشروح على التصانيف الكبرى لا غير.

وبحديثنا عن المصنفات الصوفية وذكرها في الجدول المبين أعلاه ، وتوضيح المنهج التي اتبعته ، يجعلنا هذا نتساؤل أو نلاحظ الاختلاف بينها حول طبيعتها وأنواعها ، فقمنا بإفراد أنواع الكتابات الصوفية في العنصر التالي.

2. أنواع الكتابات الصوفية

إن المصنفات الصوفية في المغرب الأوسط تعددت وتنوعت حسب الغاية والسبب الذي نظمت من أجله ، وقد لاحظنا هذا التنوع عندما تطرقنا لها في العنصر السابق ، فوجدناها تنقسم إلى:

1.2. كتب المناقب:

تعرف المناقب بكونها كتب تنطوى تحت جنس التراجم، من خلال الترجمة فيها لحياة الصوفي ، شيخ ولي ، أو عالم ، وتعد الكرامة أحد أهم مكوناتها ، وتذكر لنا للمترجم ما يلي: النسب ، تاريخ ومكان الولادة، مراحل الدراسة والتعليم ، شيوخه وتلاميذه، أسفاره ورحلاته، التدريس ، تأليفه وآثاره ، شهادات معاصريه ، آراء وانتقادات لإنتاجه ومواقفه ، وفاته ، بالإضافة إلى كرماته وخوارق العادات والأفعال (بوخضرة، 2011-2012، صفحة 133)،كما تقدم دراسة إحصائية لعدد الموردين (بوشاقور علي عمر، 2012- 2013، صفحة 41).

وتكتب بلغة بسيطة وبلهجة محلية لتسهيل حفظها وبقائها متداول في الذاكرة الشعبية للأجيال المتعاقبة (بوخضرة، 2011-2012، صفحة 134)، ومن بين ه ذه المناقب التي لم نأتي بذكرها في العنصر السابق كتاب مناقب السبطين الحسن والحسين لمحمد بن عبد الرحمن بن سليمان التجيبي، وكتاب مناقب شيخه أبي طاهر السلفي، بالإضافة إلى مساهمة الصوفي أبو العباس أحمد بن إبراهيم المعروف بالقطان في حفظ أخبار صوفية تلمسان ،استفاد منه الخطيب بن مرزوق في تدوين مجموعه (بونابي، 2004، صفحة 264).

أما بخصوص الهدف من النظم فيها فيمكن استدلاله من كلمة موروث مقدس ، لأنه من خلالها يتم بعث الحياة الروحية في النفس ، ويجدد بها العهد مع الله، والتبرك بهم والانتفاع بأخبارهم والاتعاض وتنبيه الغافلين (بوخضرة، 2011-2012، الصفحات 136 - 137)، فهي ب ذلك تكون الصورة الواقعية للمجتمع في الحقبة المتناولة ، وتعبر عن أماله وطموحاته ، وتناقضاته بطريقة تنم عن ذكاء الكاتب الذي يستطيع أن ينسج خيط المخيال الاجتماعي والفردي في أن واحد ، وه ذا ما سنتطرق له بالتفصيل في العنصر الأخير من المقالة.

2.2. الكتب الأدبية:

تعد الكتب الصوفية الأدبية من أهم المؤلفات التي تركها مؤلفيها لنا لأنها في طياتها أكثر من مجرد قصة تصور لنا القدرات الخارقة لأفرادها (بونابي، 2004، صفحة 177)، بل هي تعبر عن الوضع الاجتماعي والثقافي للمغرب الأوسط، لتتجاوز ه ذا الطرح وتقدم لنا الصورة الواقعة للمخيال الشعبي للمغرب الأوسط خلال العصر الوسيط.

فنصوصها لا يمكن فهمها إلا من خلال التأويل ، لفهم ذلك الاتحاد الذي يجمع بين الحقيقي والمجاز والحسي مع المعنوي لتشكل ب ذلك شكل من أشكال الخيال ، ساعية لكشف الغائب وفتح أبواب المعارف ، والتأمل في الكون وخالقه ، وفهم حقيقة الوجود الإنساني ، والتماس الجمال في كل شئ مما يشكل هالة اغرائية للمتصوف لخوض التجارب الصوفية (سعيدي، 2015، صفحة 55) ، وإسالة حبره في كتابتها وتخليدها من خلال مشاركتها مع المردين والعامة.

وقد قسمها الدكتور الطاهر بونابي (بونابي، نشأة وتطور الأدب الصوفي في المغرب الأوسط، 2004، الصفحات 25 - 33) (بونابي، التصوف في الجزائر خلال القرنيين 6و7الهجريين 12و13-نشأة – تياراته – دور الاجتماعي والثقافي والفكري والسياسي ، 2004، الصفحات 251-259-262) إلى: الرسائل الحجازية والأمداح النبوية، الأحزاب ، الأوراد، والشعر(شعر التصوف السني ، شهر الزهد،شعر التوسلات والابتهالات،شعر التصوف الفلسفي)، الحكم، الحكايات الكرامية ، والرسائل الاخوانية.

وبهذا نكون قد تطرقنا لأنواع الكتابات الصوفية المتواجدة في بلاد المغرب الوسيط ، ولنتقل ونشير بعدها لتأثير المخيال عليها وفي نظمها وأسلوبها ودراستها من ناحية المحتوى الكرامي والخيال ، و أبرز المظاهر المخيالية التي احتوتها هذه المصنفات.

3. تأثير المخيال على الكتابات الصوفية

إن تجربة الكتابة الصوفية من أرقى التجارب التي قد يمر بها الإنسان في حياته ، لأنها ذلك التمازج بين ما هو روحي إيماني وعقلي ، لتفرز عن مخاض نوع خاص من الكتابة مولودها تلك المصنفات الرائعة التي تأخذ بنا لنقطة يتجانس فيها اللامعقول بالمعقول ، معبر عن عصارة ثقافة اجتماعية أبعد مما يحددها الفكر المنطقي المادي .

هذه التجربة التي اعتبرها البعض مجرد ظاهرة سلوكية مرتبطة بقوى غيبية وسحرية خرافية ، تعبر عن سذاجة الناس (بونابي، التصوف في الجزائر خلال القرنيين 6و7الهجريين 12و13-نشأة – تياراته – دور الاجتماعي والثقافي والفكري والسياسي ، 2004، صفحة 177)وأفكارهم الدينية والإيمانية البسيطة، لكنها في الواقع ليست كما يظنون بل هي تجربة تعبر عن مخيال اجتماعي لبد من الحديث عنه بعيدا عن المخيال الديني الذي ذاب بطريقة أو أخرى في التصورات الاجتماعية (بوخضرة، 2011-2012، صفحة 168)، مخيال أب إلا أن يحدد من خلال السلوكات التعبدية (حرحيرة، 2012-2013، صفحة ص74).

وأن يحضر بشكل دائم في أفكار الرعية الباحثة عن متنفس لتمرد على السلطة ، بطريقة روحية في خضم الحياة الاجتماعية، معبرا عن الكرامة من خلال نصوص خطابية لها القدرة على الإقناع واستعارة اللغة المناسبة التي تستطيع اقتحام المخيال الاجتماعي، بواسطة ولي زاهد قريب من الناس متشبع بالمخيال والنموذج النبوي أو ما يعرف بمخيال المعجزات والنموذج الرسولى (حرحيرة، 2012-2013، الصفحات 75 - 76).

وبإشارتنا لنقطة الكرامة التي عبرت عنها الكثير من الكتابات الصوفية ، وتعد أحد أهم عناصرها، كان لبد لنا فهم علاقتها بالمخيال الشعبي الذي استطاع بدون أي عوائق وحواجز أن يستوعب مدلولها.

ومن ثم كانت آلة المخيال حاضرة لتجاوز ما يقف أمام عالم العقلانية والتفسير الموضوعي للظواهر الكرامية ، التي تعبر عن تجربة الصوفي الذي وصل للمخيال من خلال أدواته ا لمتمثل في الطقوس والقصص الشعبية (بوخضرة، 2011-2012، الصفحات 153 -154).

لتعطى بذلك صورة غير نمطية عن ثقافة اللباس الصوفي المنتشرة في تلك الحقبة (أعزيبي و بونابي، 2017، صفحة 228، 229) (بلعربي، 2014، صفحة 69) كما ورد في المناقب المرزوقية والتي سنأتي بذكرها فيما بعد ، لتتجاوزها نحو رؤى قلبية سواء كانت منامية أو يقظة تعبر عن قوى خارقة تكشف بها أسرار الناس (ملياني، 2018، صفحة 231) (بوخضرة، 2011-2012، صفحة 140)، في نصوص صوفية يصعب على القارئ فهمها وينال ظاهرها فقط ، إلا إذا حاول معايشتها من خلال الهام الشعراء أو ما يعرف عند الصوفية بالاستغراق والحلم (سعيدي، 2015، صفحة 56، 58)، متفطن لعمق ودلالة عباراتها البسيطة مراعيا خيال الصوفي والرمزية فيها ، ولعل المتصفح لكتابات أبو مدين شعيب في أنس الوحيد ونزهة المريد في التوحيد (عشي، 2011-2012، صفحة 235) يدرك ما أشرت إليه.

لأن أغلب الكتابات الصوفية سواء كانت منقبية أو غيرها تحدثت عن باب الكرامة والمعجزات ، وأغلب أصحابها كانت لهم مواقف صريحة تجاه أي تيار يقر بعكس ذلك خاصة فيما يخص الأولياء والعلماء ، وأن موقفهم هذا نابع من اعتقادهم وموروثهم المخيالي الاجتماعي والثقافي، ومن اللذين اقروا به هذا المازوني الذي صرح بأن غرضه من كتابه صلحاء واد شلف الدفاع عن كرمات الأولياء وتشريعها والرد على معارضيها ، من خلال كلمات واضحة نصها "...بعد أن صدرت هذا بمقدمة جليلة يستدل بها على ثبوت كرامة الصالحين والرد على من كره من الزائغين" (بوداود، 2011، صفحة 190، 192).

هذا الموقف الذي تبناه الغبريني قبله من خلال نقله لكرمات العلماء وأصحابه ، غير رافض بقدراتهم رؤية الغيب وخوارق عجيبة (بعزيق، 1995، صفحة 435) (بونابي، التصوف في الجزائر خلال القرنيين 6و7الهجريين 12و13-نشأة – تياراته – دور الاجتماعي والثقافي والفكري والسياسي ، 2004، صفحة 178)، وأكد في مقدمته أن نظمه للكتاب كان من أجل التبرك بذكرهم بقوله (الغبريني، 1979، صفحة 20): "وقد رأيت أن أصل بذكر علماء هذه المائة ، ذكر الشيخ أبي مدين والشيخ أبي علي المسيلي والفقيه أبي محمد عبد الحق الاشبيلي رحمهم الله ورضي عنهم ، لقرب عهدهم بهذه المائة ، لأنهم كانوا في أعقاب المائة السادسة للتبرك بذكرهم ..".

وإن كان هذا رأي الغبريني فإن ابن قنفذ القسنطيني تأثره بالمخيال واضح في كتابته إذ يصرح (ابن قنفد القسنطيني، 1965، صفحة 2) "وشأن الأولياء أن يمنحهم الله تعالى علوما إلهامية ، ويكشف بها عما في القلوب حتى تكون حواسهم من سمع وبصر وشم مخالفة لحواس غيرهم ، ول ذلك منهم من يرى الملائكة ، ومنهم من يرى الجن، ومنهم من يرى البلاد النائية ، ومنهم من يرى ما في السموات ، ومنهم من يرى اللوح المحفوظ ، ومنهم من يقرأ ما فيه".

وبهذا تكون لدينا نظرة عن ترسخ المخيال الشعبي سواء الجمعي أو الفردي في هذه الكتابات من خلال ذكرها لكرامات استجابة الدعاء وغيرها والتبرك حتى بملامس الصلحاء عند الزيارة ، مثل ما كان يحدث في قبر أبو مدين في العباد إذ كان يتبرك بسجادته وفريكته وعكازه (حرحيرة، 2012-2013، صفحة 107) (ماسينيون و الرازق، 1984، صفحة 89) (أعزيبي و بونابي، 2017، صفحة 233)، وهو ما يدخل ضمن آداب زيارة الأضرحة واستجابة الدعاء.

ومن بين ما قدمته لنا تلك الكرامات الخاصة بالعائلة المرزوقية والتي يذكرها ابن مرزوق بقوله (ابن مرزوق، 2008، صفحة 165): "أن شيخ رحمه الله تعالي ، مشتغلا بالبطالة ،فإذا رآنى ، وأنا صغير جدا ، من نحو ستة أعوام أو سبعة ،أو دونها ، يسرع إلي ، فيقبل يدي ، ويقول: ادع لي .." وفي موضع آخر يذكر أن ملك المغرب السلطان أبو الحسن كان يتبرك بهم وقال له أنه يعرف بركات بيتهم (ابن مرزوق، 2008، صفحة 164)، بالإضافة إلى استجابة الدعاء وشفاء المريض مما حفظه لنا مجموعه المنقبي (ابن مرزوق، 2008، صفحة 22 ، 228 ، 231 ، 234، 230).

دون أن ننسى ذكر بركات الشيخ أبو مدين والسنوسي والهواري (ملياني، 2018، صفحة 235) (التلمساني، 1908، صفحة 245) (بوداود، 2011، صفحة 195) ، مما حفظته لنا كتب التصوف من حكايات كان المخيال الشعبي هو السيد في رويتها وتوثيقها ، لدرجة أن هناك من يعتقد حتى باستمرار قدرة الولي بعد موته في استجابت الدعاء ودرء الخطر من نهب وسرقات والتبرك عند قبره لصحة والحفظ وهذا ما عبرت عنه

النصوص من رحلات أصحابها أو الساكنة لأضرحة الأولياء في بجاية وتلمسان وغيرها (ابن قنفد القسنطيني، 1965، صفحة 10) (ابن مرزوق، 2008، صفحة 125) (الغبريني، 1979، الصفحات 22-29 ، 35-36) (بلعربي، 2014، صفحة 66، 70) (بليل، 2019، صفحة 122) (بوداود، 2011، صفحة 195).

إنه بدراستنا للكتب الصوفية ترتسم لنا علاقة المخيال بنظمها وتأثيره عليها فهي علاقة تكاملية تجانسية ، يعد المخيال فيها أساس بنية نصها ، فهي نصوص شعبية محلية اجتماعية ، تعبر عن الثراء والتنوع الثقافي ، وفكر اجتماعي كان سائد في تلك الحقبة.

خاتمة

نصل من خلال ما سبق إلى النتائج التالية:

- أن الكتابات الصوفية في المغرب الوسيط عرفت من الكثرة والزخم والانتشار ما يسهل على القارئ تناولها بالطرح والدراسة لأنها استطاعت أن تأسس منهج مغربأوسطى صوفي خاص بها أثر على ما جاورها.

- إن التنوع في صنف وطبيعة المادة الصوفية جعلها تشمل جميع أنواع وميادين الكتابة من شعر ومناقب ورسائل مما ميزها بكثرتها وكثرة مؤلفيها مما ساعد على إثراء الحياة الفكرية والاجتماعية في المنطقة بصفحة عامة .

- أنه لا يمكن عزل التجربة الصوفية في الكتابة عن الحياة الاجتماعية وتأثرها وتأثيرها فيها لأنها خرجت من رحمها.

- لقد أثر المخيال سواء الجمعي أو الفردي على الكتابة والتصانيف الصوفية بطريقة مباشرة ، لأنها استخدمت أدواته وآلياته في نصوصها.

- تعد المصنفات الصوفية الملاذ الذي عبر من خلاله مؤلفوها عن مخيالهم الشخصي ، وعن مخيال العامة من الشعب ، بإفرادهم تجربة اجتماعية وظاهرة تسترعى دراستها والاهتمام بها لفهم خصائص الحياة الاجتماعية وأعماقها ، بعيدا عن الفهم السطحي لها وتضييقها في بوتقة العجيب والشاذ والخرافي .

المصادر والمراجع:

- ابن قنفد القسنطيني ,أ .ا .(1965) .أنس الفقير وعز الحقير .الرباط :مطبعة أكدال.
- أبو العباس أحمد بن حسن بن علي بن الخطيب ابن قنفذ. (1983). كتاب الوفيات (الإصدار 4). بيروت: دار الآفاق الجديدة.
- أبو العباس(ت 714ه) الغبريني. (1979). عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية (الإصدار 2). بيروت: دار الآفاق الجديدة.
- أبو القاسم محمد الحفناوي. (1907). تعريف الخلف برجال السلف (المجلد قسم 1). الجزائر: مطبعة بيير فونتانه الشرقية.
- أبو عبد الله محمد بن مرزوق التلمساني (ت781ه) ابن مرزوق. (2008). المناقب المرزوقية (الإصدار 1). الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة.
- أبو عمران موسي بن عيسي المازوني. (2019). مناقب صلحاء الشلف . الجزائر: دار الكتب العلمية .
- أحمد ابن القاضي المكناسي. (1973). : جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة

فاس (ت960ه). الرباط: دار المنصور للطباعة والوراقة.

- أحمد بابا التبكتي. (2000). كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج (المجلد ج 1). المغرب: مطبعة فضالة.
- أحمد بابا التنبكتي. (2000). نيل الابتهاج بتطريز الديباج (الإصدار 2). طرابلس، طرابلس: دار الكاتب.
- أعزيبي ,ز، بونابي ,ا .(2017) .القيم الروحية والجمالية في لباس صوفية المغرب الأوسط الزياني من خلال النص المناقبي .مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية .(12)
- الطاهر بونابي. (2004). التصوف في الجزائر خلال القرنيين 6و7الهجريين 12و13-نشأة – تياراته – دور الاجتماعي والثقافي والفكري والسياسي . عين مليلة: دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع.
- الطاهر بونابي. (2004). نشأة وتطور الأدب الصوفي في المغرب الأوسط. مجلة التراث (2).
- المقري ,أ .ع .(1968) .نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب .(Vol. 5)بيروت :دار صادر.
- أنظر ترجمته في :عشي ,ع .(2012-2011) . المغرب الأوسط في عهد الموحدين –دراسة تحليلية للأوضاع الثقافية والفكرية534)ه1139/م إلى 633ه1235/م)(ماجستير) . كلية العلوم الانسانية والاجتماعية, جامعة الحاج لخضر :باتنة.
- بابن مريم الشريف التلمساني. (1908). البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان . الجزائر: المطبعة الثعالبية.
- بعزيق ,ص .(1995) .بجاية في العهد الحفصي : دراسة اقتصادية واجتماعية (دكتوراه) كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ,جامعة تونس : تونس.
- بلخير ليبدري. (2015- 2016). ، الحركة العلمية بالمغرب الأوسط خلال القرنيين 6-7 الهجريين(12-13)(دكتوراه) . كلية العلوم الانسانية والاجتماعية ، جامعة الجيلالي ليابس: سيدي بلعباس.
- بوتشيش ,آ .(2016 – 2015) .بجاية من العهد الحمادي إلى الغزو الاسباني دراسة تاريخية حضارية(دكتوراه)كلية العلوم الانسانية والاجتماعية ,جامعة أبي بكر قايد :تلمسان.
- بوخضرة ,ب .م .(2012-2011) .الولي في المخيال الشعبي –الطريقة القادرية في الغرب الجزائري نموذجا (دكتوراه) كلية العلوم الانسانية والاجتماعية ,جامعة أبي بكر قايد :تلمسان.
- بوشاقور علي عمر ,أ .(2013 -2012) .الطرق الصوفية والصراع السياسي في المغرب الإسلامي –أحمد بن يوسف الملياني نموذجا ،) ماجستير . (كلية العلوم الانسانية والاجتماعية, جامعة وهران :وهران.
- بوعقادة ,ع .ا .(2011) .عرض أطروحة الحركة الصوفية بالمغرب الأوسط في القرنيين الثامن والتاسع هجري /الرابع عشر والخامس عشر الميلاد .مجلة كان التاريخية .(13)
- بوكرديمي ,ن .(2016 -2015) .الرحلة العلمية لعلماء المغرب الأوسط إلى المغرب الأدنى من القرن السابع إلى التاسع الهجريين 15-13)م (

)دكتوراه .(كلية العلوم الانسانية والاجتماعية, جامعة الجيلالي اليابس :سيدي بالعباس.

- تقي الدين طيايبة. (2019-2020). التطور التاريخي للتدوين الفقهي المالكي في العصر الوسيط (دكتوراه) . كلية العلوم الانسانية والاجتماعية ، جامعة الحاج لخضر: باتنة.
- خالد بلعربي. (2014). حركة التصوف في بجاية خلال القرنيين 6 و 7 هـ- 12 و 13 م. مجلة حوليات التراث (14).
- رزيوي ,ز .(2016 -2015) .العلوم والمعارف الثقافية بالمغرب الأوسط مابين 7هـ و 9هـ 13 / و 15م (دكتوراه). كلية العلوم الانسانية والاجتماعية ,جامعة الجلالي اليابس :سيدي بلعباس.
- سعيدي ,د .(2015) .برزخة الخيال في المنظور الصوفي .مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية .(32)
- عادل أنظر نويهض. (1980). معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر (الإصدار 2). بيروت، بيروت: مؤسسة نويهض للثقافة.
- عبد القادر بوعقادة. (2014- 2015). الحركة الفقهية في المغرب الأوسط بين القرنيين 7و9هـ/13و15م (دكتوراه) . جامعة الجزائر 1: الجزائر.
- عبد القادر بوعقادة. (2011). عرض أطروحة الحركة الصوفية بالمغرب الأوسط في القرنيين الثامن والتاسع هجري/الرابع عشر والخامس عشر الميلاد. مجلة كان التاريخية (13).
- عبد الكريم بليل. (2019). الدور الاجتماعي والنفسي لبواكر التصوف في المغرب الأوسط (الجزائر). مجلة أكاديمية فصلية محكمة تعنى بالبحوث الفلسفية والاجتماعية والنفسية ، 6 (2).
- عبيد بوداود. (2011). تقديم مخطوط كتاب في صلحاء وادي شلف لموسي بن عيسى المازوني. حولية المؤرخ (14/13).
- عبيد بوداود. (2011). تقديم مخطوط كتاب في صلحاء وادي شلف لموسي بن عيسى المازوني. حولية المؤرخ (14/13).
- عشي ,ع .(2012-2011) .المغرب الأوسط في عهد الموحدين –دراسة تحليلية للأوضاع الثقافية والفكرية 534)هـ1139/م إلى 633هـ1235/م)(ماجستير). كلية العلوم الانسانية والاجتماعية ,جامعة الحاج لخضر : باتنة.
- عشي ,ع .(2012-2011) .المغرب الأوسط في عهد الموحدين –دراسة تحليلية للأوضاع الثقافية والفكرية 534)هـ1139/م إلى 633هـ1235/م)(ماجستير). كلية العلوم الانسانية والاجتماعية ,جامعة الحاج لخضر : باتنة.
- ماسينيون، و مصطفى الرازق. (1984). التصوف (الإصدار 1). (خو رشيد إبراهيم، و وآخرون، المترجمون) لبنان: دار الكتاب.
- محمد بن عربة. (2011). التصوف والصوفية بالمغرب الأوسط خلال العهد الزياني صوفية وهران وأحوازها أنموذجا. المجلة الجزائرية للمخطوطات ، 7.

- محمد بن محمد بن عمر بن قاسم مخلوف. (2003). شجرة النور الزكية في طبقات المالكية (الإصدار 1، المجلد 1). بيروت: دار الكتب العلمية.
- مداني حرحيرة. (2012-2013). الرمزية الصوفية في الأزمات الاجتماعية –الكرامات و تمثيلاتها في المغرب الأوسط(ق 10/14م)، (الماجستير) . كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة وهران: وهران السانيا.
- ملياني ,ز .(2018) .دور المتصوفة في مجتمع الغرب الإسلامي .مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية .(35)
- هادي جلول. (2015-2016). العلوم الدينية في المغرب الأوسط (من القرن 2هـ/ - 8م-14م)(دكتوراه) كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة الجيلالي: سيدي بلعباس.